شرح أسماء الله الحسنى 27،28 (القابض والباسط)

أولا / المعنى اللغوي: القبض هو: الأخذ،تقول: قبضت الشّيء إذا أخذته وأمسكت به. وقبضت روح فلان، أي: أُخذت منه وسُلبت ،وصار الشيء في قبضتك يعني في ملكك .

ومنه قيل لمن يمسك عن النّفقة والبذل: قَبَض، قال تعالى في وصف المنافقين :{ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُم} [التوبة: من الآية67]، أي: يمتنعون عن الإنفاق.

– وأمّا البسط: فهو نقيض القبض، وبسطُ الشّيء – بالسّين والصّاد – هو: نشره ومدّه، والبَسْطة هي السّعة في الشّيء، كما في قوله تعالى:{وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} [البقرة: من الآية247]، ومنه بسط الأرض أي: مدّها، فتسمّى البسيطة

والبَساط، وما يُمدّ على الأرض يسمّى البِساط، ورجل بسيط اليدين وبِسْط اليدين أي: واسع البذل والمعروف.

ومنه تُدرك خطأ من يعبّر عن الكتاب الصّغير الحجم بـ(البسيط) ! فهو عكس معناه، وكذلك القول على الرجل الفقير: رجل بسيط ولعله من باب الفأل .

ومعنى البسط في حقّ الله عزّ وجلّ: الزّيادة والسّعة، فيوسّع الأرزاق بجوده وكرمه، ويبسط الرّوح في الجسد.

والقبض بمعنى التّضييق والتّقتير، فيضيّق ويقتّر على من يشاء.

ثانيا / ورودالاسمين في القرآن الكريم والسنة المطهرة:

يذكر العلماء نصوصا كثيرة من كتاب الله عزّ وجلّ على إثبات هذين الاسمين للمولى تبارك وتعالى، منها:

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} البقرة: من الآية245

وقوله سبحانه:{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} الرّعد: من الآية26

وورد هذا في تسع آيات، وقال تبارك وتعالى:{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} المائدة: من الآية64.

والصّواب أنّ هذه النّصوص تثبت صفة القبض والبسط، والأسماء لا تثبت

بمجرّد الصّفات كما سبق تقريره مرارا.

أمّا الدّليل على أنّهما اسمان من الأسماء الحُسنى فهو حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، غَلَا السِّعْرُ، فَسَعِّرْ لَنَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ) رواه الإمام أحمد .

ثالثا / المعنى في حق الله تعالى

الباسِطُ سبحانه : هو الذي يَبْسُط الرزق لعباده بجُوده ورحمته ، ويوسعه عليهم ببالغ كرمه وحكمته.

والقابِضُ سبحانه : هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العِبادِ بلطفه وحِكمته فيُضَيِّقُ الأسباب على قوم ويُوَسِّع على آخرين ابتلاء وامتحانا ، فإن شاء وسع وإن شاء قبض فهو الباسط القابض .

فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة .

وهذان الاسمان من الأسماء المزدوجة :

لأنك إذا قلت قابض فقط فمعنى ذلك أنك تصفه بالمنع والبخل و لكن إذا قلت إنه قابض باسط، فمعنى ذلك أنك وصفته بالقدرة والحكمة ، وإذا جمعت بين

الاسمين فقد وصفت الله سبحانه وتعالى بالقدرة والحكمة .

فالأدب في هذين الاسمين أن يُذكرا معا، فيُقرن أحدهما في الذّكر بالآخر، وأن يُوصل به ليكون أنبأَ عن القدرة، وأدلّ على الحكمة، كقوله تعالى:{وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: من الآية245]، وإذا ذكرت القابض مفردا عن الباسط، كنت قد قصرت بالصّفة على المنع والحرمان ، وإذا أوصلت أحدهما بالآخر فقد جمعت بين الصّفتين، منبِئا عن وجه الحكمة فيهما لأنّ تمام القدرة بذكرهما معا، ألا ترى أنّك إذا قلت: إلى فلان قبْض أمري وبسْطه، دلاّ بمجموعهما أنّك تريد أنّ جميع أمرك إليه ؟

حكم التسمي بعبد الباسط فقط :

ونلحظ أنّ حكمهم بالمنع، إنّما يخصّونه بما إذا ذُكر القابض دون الباسط، وهذا ممّا لا شكّ في صحّته، كما أنّه لا يقال في حقّ الله: إنّه يمنع دون أن يقرن بالعطاء، وأنّه يخفض دون أن يُقرن بالرّفع، وأنّه يذلّ دون أن يقرن بالإعزاز، وأنّه يضرّ دون أن يقرن بالنّفع، فالتسمي بعبد الباسط دون الاقتران باسم القابض لا يؤثر في المعنى الظاهر .

رابعا / تأملات في رحاب الاسم الجليل:

قال تعالى : {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} الحجر 21:

إن الله يقبض ويبسط ، ولكن إذا قبض لا يقبض بخلاً ولا إذا بسط بسط إسرافاً ، بل يقبض عن حكمة و قدرة و علم و تقدير ويبسط عن إكرام وتوسعة وامتحان، فبسطه إكرام أو امتحان وقبضه معالجة أو وقاية .

وقد ظنت يهود أن منع الله لهم بخلاً منه سبحانه أو فقراً تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً فكذبهم ولعنهم ، وتوعدهم بالخزي والعذاب (وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة :64]

و (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (182) آل عمران

إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ:

قال تعالى : (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) سورة الشورى

فعطاؤه ومنعه تابع لعلمه بعباده وما يصلحهم وما يفسدهم

والمؤمن إذا تيقن هذا الأمر وأدرك الحكمة في القبض والبسط ،استراحت نفسه وقل همه وذهب عنه الغم والقلق ، فهو يرى نفسه خليفة يعيش كما أراد من استخلفه .

ولو متع الله الإنسان دائما بالصحة لما سمع دعاء المريض ، ولو أغنى جميع عباده بالمال ؛ ما قال أحدهم يارب ارزقني ، فالذي يجعل قلبك معلق بالله أن النعمة دائما بيده فيجعل القبض والبسط وفق مشيئته وحكمته فالله لا يبسط كل البسط ، ولا يقبض كل القبض وأنما يعطي كل واحد من عباده ما يصلحه ، ولذا كثيرا ما يقرن ربنا سبحانه بسط الرزق والتضييق بالعلم والخبرة ؛ كما قال تعالى : (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الشورى:12]

وقال (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) [الإسراء: 30]

فالبصير ينظر ماذا وجد لا ماذا فقد ، ورحم الله عروة بن الزبير لما ابتلي بقطع رجله قال : " اللهم إن كنت أخذت فقد أعطيت وإن كنت ابتليت فقد عافيت " فنظرك إلى النعمة يؤدي إلى الشكر ، والنظر إلى النقص يؤدي إلى السخط والجزع .

القبض أو البسط ليس علامة لحب الله للعبد :

عطاؤه سبحانه وبسطه لعبده في الأرزاق والأموال والأولاد من أعظم ما يمتحن به عباده ويبتليهم به وقد ظن بعض المعرضين المكذبين للرسل أن ذلك لكرامتهم على الله ، وأنه اصطفاء منه لهم فأخبر سبحانه أن عطاءه ليس الدليل على رضاه { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ

كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) سبأ

وقال تعالى : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ) المؤمنون

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ؟! كلا ليس الأمر كما يزعمون ، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء؛ ولهذا قال: { بَل لا يَشْعُرُونَ } ، كما قال تعالى: { فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } التوبة: 55

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم :

فالإنسان بحكم قصور عقله لا يدري ضره من نفعه ، وليس كل بلاء وتضييق عقوبة ؛ بل كثيرا ما تأتي المنح في بطون المحن ،وفي ذلك المعنى يقول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – "ما أصبت ببلاء إلا وجدت لله علي فيه أربع نعم :

الأولى أنه لم يكن في ديني، وكل مصيبة في الدنيا تهون إذا لم تكن في الدين، وعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا".

والثانية أنه لم يكن أكبر منه، لأن كل بلاء هناك بلاء أكبر منه ..

والثالثة أنني لم أُحرم الرضا به.

والرابعة أنني أرجو ثواب الله عليه.

وأحد الصالحين عثرت قدمه بحجر فابتسم وقال: الحمد لله، قيل له: فيك كل هذا الوجع وتبتسم ؟! قال: إن حلاوة الثواب أنستني مرارة الألم !!!

خامسا / ثمار الإيمان بالاسم الجليل :

1- إدراك سعة رحمة الله تعالى:

روى مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (إِنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

ومن هنا كان أعظم البسط: بسط الرّحمة على القلوب، حتّى تستضيء وتخرج من ظلمة الذّنوب، فإنّ هذا هو الشّرح المذكور في قوله تعالى:{أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزّمر:22]، وقوله تعالى:{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}، ويقابله القبض في قوله عزّ وجلّ:{وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام:125].

2- ما يمسكه عزّ وجلّ عن بعض العباد إنّما هو لحكمة بالغة:

قال الله تعالى:{وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى:27]، فالقبض والبسط تابعان لحكمته عزّ وجلّ .

3- أنّ بسط الخالق ليس كبسط المخلوق، من حيث الحقيقة، ومن حيث المعنى:فمن حيث الحقيقة؛ فلقوله تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: من الآية11]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "التّدمريّة" (29):" ووصف نفسه ببسط اليدين، فقال:{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: من الآية64]، ووصف بعض خلقه ببسط اليد في قوله:{وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} [الإسراء: من الآية29]، وليس اليد كاليد، ولا البسط كالبسط "اهـ.

ومن حيث المعنى: فبسط الكفّ يُستعمل في المخلوق للبذل والعطاء تارة، وتارة للطّلب والأخذ نحو:{كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ} [الرعد: من الآية14]، {وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ} [الأنعام: من الآية93].أمّا بسط الله عزّ وجلّ إنّما هو للعطاء فقط.

4- أن على من بسطت له الدنيا أن يعترف بفضل الله ومنته فيبسط لسانه له بالشكر ويده بالعطاء ، ويعلم أنه مبتلى بهذا المال وليعلم أن الموازين عند الله ليس بحسب ما بالأرصدة من المبالغ فكم ممن أعطاهم ربهم المال لا يقيم لهم

يوم القيامة وزنا ، وأن يخشى أن يكون استدراجاً من الله له ،وكان الصالحون الذين أنعم الله عليهم يخشون أن تكون حسناتهم عجلت لهم فروى البخاري من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : (أنه أُتِيَ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا فَقَالَ : قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّى ، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ ، إِنْ غُطِّىَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلاَهُ ، وَإِنْ غُطِّىَ رِجْلاَهُ بَدَا رَأْسُهُ ، وَأُرَاهُ قَالَ : وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّى ، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ ، أَوْ قَالَ : أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا ، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِى حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ)

5- أن يوقن العبد الذي حرم شيئا من الدنيا ، ولم يقدر له مع السعي في تحصيله أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه فكم من عطاء كان سببا للشقاء ، فلعل الله حرمه لتصفو نفسه لمولاه وتقر عينه بربه كما كان نبيه عليه الصلاة والسلام الذي جعلت قرة عينه في صلاته فلا يجد العبد لذة في سوى مرضاة الله ولا تجد نفسه سعادة ولا نعيم ولا سرور إلا بالقيام بعبوديته سبحانه , فإذا حصل للنفس هذا القدر الجليل فأي فقر يخشى معه ، وأي غنى فاته حتى يلتفت إليه ، فالغنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس)

6- أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال , فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال , وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن

أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته . فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة

7- أن يثني المؤمن على ربه في عطائه ومنعه فالعطاء والمنع من موجبات حمدهويلهج بالدعاء الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم في أشد أيامه صعوبة وأكثره جراحا : (لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِي عَلَى رَبِّي، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفاً فَقَالَ : اللهمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، اللهمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ، وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ وَلاَ هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ ، وَلاَ مُضِلَ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ ، وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ ، اللهمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ ، اللهمَّ إني أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الذي لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ ، اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ ، اللهمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ ، اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللهمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ مَفْتُونِينَ ، اللهمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ ، اللهمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ) رواه أحمد وصححه الألباني من حديث ابن رفاعة الزرقي رضي الله عنه.